دمشق : بلاليل

قصة بقلم جان الكسان

كان يأكل برتقالة كبيرة مرة .. وشعر بانه يختنق .. وعندما تقيأ ، توقفت الاوركسترا عن العزف ، وضجت القاعة الكبيرة بالصراخ ، وبدأت قنابل كثيرة ـ لها دوي هائل ـ تنفجر في المكان فتثقب الجدران دون ان تصيب احدا من الموجودين .. فترك مكانه وركض الى الدرج ووقع اقدام كثيرة راكضة خلفه يدق في اذنيه ..

وقبل ان يصعد الدرجة الاولى استدار الى الخلف فاذا بالقنابل تتوقف عن الانفجار وتتكوم في زاوية القاعة ، واذا بالاصوات الضاجة تصمت دفعة واحدة ، والراقصة ذات الساقين العاريتين لا تزال تتلوى بكسل على المسرح الارضي والذبالات الكهربائية الملونة تهتز في السقف باستمرار ..

وفجأة .. ارتفع الصياح من جديد وتدافع نحوه كل من في القاعة ، فاستدار الى الدرج وراح يصعده بسرعة ، وما ان وصل الى الدرجة العليا حتى احس بركبتيه تشلان عن الحركة فهوى .. وقبل أن يمسك احد المطاردين بكعب حذائه كان قد نهض من جديد وقفز بسرعة الى الخارج .. وكان ابن الجيران جالسا على الرصيف يرتق معطفه ، وفي منتصف الشارع رأى امه واقفة تقهقه كواحدة مجنونة .. وانفتل الى الوراء فرأى مطارديه يركضون في جهة معاكسة وقد انسجم صراخهم في قهقهات صاخبة راحت تداعب اذنيه بتلاعب رتيب ..

وفتح عينيه ..

كانت اصوات صاخبة تهز الجدران وتدق في اذنيه بضجيج هازج .. ونظر الى ساعة الجدار .. لم يكن قد نام سوى نصف ساعة .. كان يتألم .. قدماه لن تحملاه ليخرج بدوره الى الشارع يشارك الناس فرحتهم ..

وامتدت اظافره تنغرس في المخدة عندما كانت الاصوات الصاخبة المتعالية تبتعد عنه الى قلب المدينة ..

« ما اسعدهم هؤلاء الناس ..!»

كان يريد ان يكون بينهم ... ان يلبس معطفه بوضع مقلوب.. ان يضع مثلهم على وجهه قناعا ـ قناع قرد مثلا ـ ويقفز فرحا ..

ولكن ..

هل يستطيع ان يقفز ؟.. لماذا يخدع نفسه ؟.. لماذا يشتط به التفكير فيغيب عن واقعه ؟.. هل يخاف ان يقول الحقيقة لنفسه ؟.. هل اخفى هذه الحقيقة يوما عن نفسه خلال السنوات الثلاث الاخيرة منذ ان استيقظ من نومه ذات صباح ليواجه هذه الحقيقة القاسية التي شلت قدميه عن الحركة ، والتي وقفت براءة الاطباء امامها حائرة واكتفت بتقرير يقول : انه شلل لا امل معه بالشفاء ... واشتد انغراس اظافره في المخدة ، ولكن يده سرعان ما تراخت عندما رفع ابصاره يحدق في صورة مستطيلةمعلقة على الجدار ..

*

« يا جمال ...

هذه امنية كبيرة من امنيات شعبك تحققت .. انها وحدة مباركة ونتيجة طيبة لانطلاقة مؤمنة .. رغم ايماني لم اصدق يا اشجع زعيم لانني لم اكن لاعترف بأن الاحلام تفسر تفسيرا واقعيا ...

ولكن الحلم تحقق .. ولمت نفسي كثيرا .. كدت ان ابكي .. ان ألطم رأسي لثقتي الناقصة بهذا الشعب العظيم الذي صنع البطولات والحضارة والتاريخ المجيد ..

ويوم أنسافر اليك اخوك .. هذا الرجل الذي بارك جيلنا مشيبه الكريم ، غاص قلبي بين جنبي .. كنت اختنق .. كنت اريد ان يصل اليك سالما لتتعاقد الايدي وتعلن الحدث الكبير ..

وحمدت الله ..الف مرة .. وتمنيت لو لم يكن الشلل يعيش في قدمي ، اذن لطرت راكضا في الشوارع اصيح : يا ناس اسمعوا .. لقد وقع الحدث العظيم .. احلام الشعراء والكتاب كلها اليوم واقعية ... وحدة .. وحدة لا اتحاد .. شعب واحد .. جيش واحد .. علم واحد ..

والمرة الثانية كدت أن الطم رأسي .. لم كل هذا التطرف في التعبير عن الشعور .. كل ابناء الشعب اليوم يزفون البشرى في الشوارع .. هذه شوارع دمشق الفيحاء يستيقظ فيها حلم كبير من احلام بني امية .. الوجوه مستبشرة .. والحناجر هازجة .. والاذرع حرة كريمة ترتفع عالية في الفضاء تشهد التاريخ على فرحتها الكبرى .. الاطفال والنساء والرجال والشباب والشيوخ كلهم في عرس .. وكلهم تضج بهم ارض مدينتي .. عرس وأي عرس ؟.. فرحة ، وأية فرحة ! زعيمي .. دمشق كلها تحتفل ، حتى الحجارة ترقص ، فالمناسبة رائعة يا زعيمي ، وعزة جديدة ينالها العرب على يديك ..

نريدك يا زعيم .. نريد ان نستقبلك في دمشق .. نريد ان نصافح يدك القوية .. نريد ان تحقق حلمنا الاكبر ، فانت بطلنا .. وأنت رجل العروبة .. انت في كل قلب .. في كل مهجة .. انت رائدنا النضالي في سعينا الكريم الذي حققنا به وحدتنا ..

وحمدت الله يا جمال .. ولبثت انتظر يومك بفارغ الصبر .. ان والدتي تحبني يا زعيمي .. انا وحيدها وآخر من بقي لها في دنياها المسكينة .. انها الان هناك في الشوارع تنظر الى الناس والافراح والمصابيح ودموع سعيدة تلتمع في عينيها التعبتين ..

والدتي هذه جاءتني امس الاول بسيارة وطلبت من اثنين من الشباب فحملاني الى صندوق الاقتراع لاقول كلمتي .. لاعقد لك بدوري طرفا من الراية .. كل القلوب التي كانت حولي . كل العيون .. كل الايدي .. كل المهج قالت : نوافق ، وأجيالنا الصاعدة يا جمال .. غدا عندما تشب وتدرك معنى هذه اللحظات التاريخية التي سرنا في دربها العريض نحو وضع تاريخنا الامجد ستقول : نوافق .. فهذا رجل العروبة ، وله وحده كان يجب ان تعقد الراية ولساعده القدير كان يجب ان توسد الامور ..

هل تراني اتفلسف يا زعيمي ؟ هل ترى البيان رائعا في لساني ؟ كلنا اليوم نتكلم هكذا ، كل شعبنا يعرف واقعه والامجاد التي يصنع .. ان انطلاقة شعبنا هذا ونضاله الشريف من أجل حرية تامة وحياة افضل ووحدة شاملة .. هذه الانطلاقة نقطف اولى ثمارها اليوم يانعة ..

هل ترى الى دموعي كيف تنثال يا زعيمي ؟ انها كدموع امي الطيبة .. دموع فرحة كبيرة كأماني هذا الشعب .. لا .. لن أتألم يا زعيمي لانني ما استطعت ان اشترك مع مواكب الهازجين .. سأكون عاقلا هذه المرة ، سأحتفل بالفرحة لوحدي مع صورتك هذه . .

*

في الصباح استيقظ رامز على صوت امه وحركة يدها التي تهزه : رامز . .رامز ..

وفتح عينيه يستفهم ..

ـ قم .. قم . .جاء جمال .. انه في دمشق ..

وهم رامز ان ينهض .. انسته الفرحة حقيقته القاسية . . نسي العلة التي تشل قدميه عن الحركة .. وأدركت الام خطأها فارتمت عليه تحتضنه وتبكي ..

وامتدت يده تمسح دموعها : لا بأس .. لا بأس يا امي . انا لست متألما لمصيبتي .. انما لانني لن استطيع ان ارى جمال .. اذهبي يا امي .. اذهبي انت ، ولوحي له بيدك كثيرا .. لوحي عني ايضا .. هيا .. هيا يا امي .. لماذا انت واقفة ؟ هيا .. اذهبي .. ألا تسمعين الاصوات والاهازيج والزغاريد ؟ اذهبي يا امي .. لا تحرمي نفسك من رؤية هذا الرجل العظيم ..

*

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، عندما تقدم رئيس حرس الشرف من شاب يجلس فوق جلد خروف على رصيف قصر الضيافة الذي يضم الزعيم ويقول له : الساعة الثالثة بعد منتصف الليل يا اخي ..

وأجاب الشاب بسرور : اعرف هذا ..

ـ نرجو ان تذهب لبيتك ، فالرئيس قد نام . .

ـ هل الجلوس هنا ممنوع ؟..

ـ لا .. انما الدنيا ليل !..

ـ ليل ؟.. ابدا .. هل ترى هذه الانوار .. اليس هذا هو النهار .. هل تسمع اهازيج الناس في قلب المدينة ؟.. لا يا سيدي .. دمشق اليوم بلا ليل فلماذا ننام ؟..

في الصباح ، كان رئيس الحرس يروي لزملائه الضباط حكاية الشاب الذي كان يجلس فوق جلد خروف على رصيف قصر الضيافة ، عيناه معلقتان بأنوار القصر الكثيرة وابتسامة رضى تشيع على وجهه . .

ولم ينس ان يقول لهم ان الشاب كان يلبس معطفه بوضع مقلوب ..

دمشق **جان الكسان**

من (جمعية الادباء العرب)